كتاب أحكام النبوة

الباب الأول: في تفسير النبوة.

الباب الثاني: في الرد على البراهمة.

الباب الثالث: في بيان أن محمداً ﷺ رسول الله حقاً وصدقاً

الباب الرابع: في شروط المعجزة.

الباب الخامس: في معجزاته ﷺ.

الباب السادس: في نسب النبي ﷺ.

الباب السابع: في أخلاق النبي ﷺ.

الباب الثامن: في كتب النبي ﷺ التي أرسلها إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام.

الباب التاسع: في خصائص النبي ﷺ.

الباب العاشر: في حلية النبي ﷺ.

الباب الحادي عشر: في بيان أنه رسول صادق، وأن رسالته لم تزل.

الباب الأول

في تفسير النبوة

اعلم أن النبوة ليست بمكتسبة[1]، ولا هي صفة النبي ﷺ، وليست بجسم فيوضع على الطبق. وأما تفسير النبوة فمعناها: تعلق خطاب اللّه تعالى بشخص، أن يقول له: أنت رسول، وقد بعثتك إلى أمة كذا؛ لتدعوهم إلى كذا. فحينئذ ثبتت رسالته، ويجب على الخلق طاعته، ولا يتعلق هذا بكسب بشر، ولا يحصل بجهد آدمي، ولو أنفق عمره في الرياضة، وأذاب مهجته فيها، فليت شعري ما عمل عيسى في المهد حين قال: إني عبد اللّه؟ وما فعل خليل اللّه في صباه حين قال: إني وجهت وجهي؟ وماذا كسب آدم ﷺ ببديع فطرته حين قال: من تراب ثم اصطفاه واجتباه؟ وإخوة يوسف مع ما فعلوا مع يوسف خصوا بالنبوة، وموسى ﷺ كان يرعى لشعيب الغنم، فأعطاه اللّه النبوة. هيهات هيهات لا كسب ولا رياضة، ولا جهد ولا دراسة، بل نبأ عناية ذلك فضل اللّه، يؤتيه من يشاء.

وقد ضل في هذا الباب عالم وهلك جماعة، وغرق في بحار الفكر جميع الفلاسفة، فقالوا: «النبوة مكتسبة، يمكن كسبها بالرياضة». فيقال لهم: يا ضلال استحيوا من اللّه حق الحياء، فإن محمدا ﷺ كان في إجارة خديجة رضي اللّه عنها، يعمل لها، وكان يرعى فأدرجت النبوة بين كتفيه ﷺ، ثم منذ استأثر اللّه تعالى محمدا ﷺ ونقله إلى جنته قد مضى زهاء خمسمائة سنة وأربعين سنة. أما كان رجل من هذا العالم العظيم أن يصفي نفسه، ويروض طبعه، لينال النبوة؟ ثم أنتم بعد تقشفكم وعزوبكم من طيبات الدنيا يسكن أحدكم حياً فارغاً طول الدهر، لا

---

[1] ويقول البوصيري: (تبارك الله ما شرعٌ بمكتسب).

يأكل شيئاً من الدنيا، ومع ذلك لم يكن أحد فيكم ادعى النبوة لا كان ولا يكون الدهر إلى يوم القيامة. فأمسكوا عن هذياتكم وأقصروا عن بهتانكم.

ومن قال إن الإنسان برياضة القلب وبمجاهدته للنفس يصل إلى العالم الروحاني، فذاك زنديق يقرع باب الزندقة، بل صفاء القلب من فضل اللّه، وسواد القلب من خلق اللّه، لا خالق إلا اللّه، لا علة ولا معلول، ولا طبيعة ولا مصنوع، بل اللّه صانع وما سواه مصنوع، فكم رأينا من رجل جاهد وهاجر وراض نفسه بالمجاهدات الشاقة، فما حصل إلا على السوداء البحت، والماليخوليا الصِّرْف[1]. وكم رأينا من يتمرغ في النعيم، يغدو بجفان ويروح بجفان وقد حصل له كرامات وولايات وليس باتفاق. فخذوا حذركم، فأي طاعة أكثر من طاعة إبليس وعاقبته اللعنة؟ وأي معصية فوق معصية سحرة فرعون وخاتمتهم الرحمة؟ قال الأستاذ أبو إسحق: إن بعض الفلاسفة خدع بعض الناس، وقال: إنكم تصلون بالرياضة وصفاء القلب إلى عالم الروح، ومن عالم الروح إلى عالم الملكوت، ومن عالم الملكوت إلى عالم الغيب، فالمساكين هجروا الديار والأوطان، وأقبلوا على أكل الحشيش ومساكنة الجبال ومرافقة الوحوش، فخف دماغهم، وأخذتهم الماليخوليا، فتعجلوا بالمعد السوداء، وذهبت أعمالهم هباء، ولم يحصلوا إلا على سراب يحسبه الظمآن ماء.

قاعدة مفيدة: خاصية النبي ﷺ شيئان اثنان، إحداهما: أن لا يكون في نظره خطأ البتة، فلا يعتريهم خطأ في دين اللّه تعالى، واللّه تعالى يعصم نظرهم عن الخطأ والنسيان، ويجوز الخطأ والنسيان على الأنبياء، إلا في موضع واحد، وهو:

---

[1] الماليخوليا: تغيُّر يلحق العقل من اختلالٍ في الطبيعة.

تبليغ الرسالة. ففي هذا الموضع لا يجوز، فتأمل في هذه النكتة. والثاني: أن الله قد شرفهم وأكرمهم بأخبار الغيب، أو بواسطة ملك أو بنفسه، أو بأن يخلق لهم علماً يعرفون به أنه كلام الله، أو غيب يظهره عليه عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول، وما سوى ذلك فهو كسائر الآدميين.

الباب الثاني

في الرد على البراهمة

جميع أهل القبلة من أمة محمد ﷺ يجوزون أن يبعث الله أنبياء إلى الخلق بالأمر والنهي، فيأمرهم وينهاهم بواسطة رسالتهم؛ لأن الأنبياء مبلغون وليسوا بموجبين. وقالت البراهمة من أهل الهند: لا يجوز بعثة الأنبياء عقلا ولهم في ذلك شبهتان:

الأولى: قالوا لا يخلو ما جاء به الأنبياء إما أن يكون موافقاً للعقل، أو مخالفاً للعقل. فإن كان موافقاً للعقل فلا حاجة إلى النبي، وإن كان مخالفاً للعقل فلا يمكن معرفته فما به حاجة إلى النبي؟ الجواب: نقول يا معشر الحمير، وأصحاب السعير، عرفتم شيئاً وغابت عنكم أشياء، الشرع مؤكد للعقل مقرر له يرشد إلى أشياء لا تدرك بمحض العقل، فإذا لم يكن في إرسال الرسل استحالة خروج عن حقيقة فيجب الحكم بجوازه، وهذا لأن العقل يقضي بتناول الدواء عند المرض، ثم الأطباء يبينون قوانين الأدوية والتفصيل، ويعرفون الضار من النافع، فالحاجة ماسة إلى الأنبياء. فالأطباء أصحاب الأبدان، والأنبياء أصحاب الأديان، وأيضاً تفاصيل الشرعيات من أعداد الصلوات والحدود والكفارات لا يهتدي العقل إليها، فالحاجة داعية إلى الأنبياء في بيان ذلك.

الشبهة الثانية: الأنبياء وردت بذبح البهائم من غير جريمة، وهو قبيح،

فلهذا قلنا: لا يجوز بعثة الأنبياء. الجواب: هذه البهائم مملوكة للّه تعالى، تارة يؤلمها ويسقمها، وتارة يميتها، وتارة يأمر بذبحها. وللمالك أن يتصرف في ملكه كما يشاء لا اعتراض عليه، فلما جاز له إماتتها جاز له أن يأمر بذبحها، ولأنها إذا تماوتت لا ينتفع بها أحد، فأمر بذبحها لينتفع بها عبيده، ولأن الآدمي أشرف من البهائم، وقد خلق محتاجاً إلى الأكل والشرب ليكون له قوة ونشطة على عبادة اللّه وجهاد أعداء اللّه، فاللّه حكيم وجعل البهائم فداء الآدمي وصيانة لقوته وكفاية لمعيشته، ومن جعل الأخس فداء الأشرف يكون حكيماً.

جواب آخر: معظم أمر المعيشة مرتبط بجلودها من السرج واللجم والسياط والأنطاع والخفاف والمخاد والأخبية، فلو لم يجز لأدّى ذلك إلى الحرج ولا حرج في الدين.

الباب الثالث

في بيان أن محمدا ﷺ رسول اللّه حقا وصدقا

فإن قال لك قائل: ما الدليل على أن محمداً رسول اللّه؟ فقل: الدليل عليه أني أعلم ضرورة أن محمداً ادعى النبوة في مكة، وتحدى بها، وأظهر اللّه على يديه معجزات، وآيات عجز الخلق عن الإتيان بمثلها، وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة ولم يعارضه معارض، ومن أعظم الآيات أنه شخص واحد ظهر والعالم من الشرق إلى الغرب يموج بالكفر، فقال: «يا قوم ها أنا أقول لكم إن دينكم باطل، ومذهبكم فاسد، وآباؤكم وأمهاتكم في النار، وإن متم على هذا الاعتقاد فأنتم كلاب النار، فها أنا أقول لكم هذا، فكيدوني جميعًا ثم لا تنظرون»، فلم يقدر أحد من العالم على دفعه ومعارضته، فهذا من أدل دليل على الحق والقوم على الضلال.

دليل آخر: إن اللّه أنزل عليه القرآن عربياً معجزة له، ولو اجتمع الأولون

والآخرون على أن يأتوا بمثله لا يقدرون عليه، وكما أعلم ضرورة وقطعاً أن بلدة في العالم يقال لها بغداد، أعلم أن محمد بن عبد الله ادعى النبوة، وأظهر الله المعجزة على يده ﷺ، فأي دليل أدل من هذا؟

فإن قال: لم يظهر محمد بعد. فهو محال؛ لأن هذا معلوم بالضرورة. وإن قال: لم يدع النبوة. فمحال؛ لأنه معلوم بالضرورة، نقل إلينا تواترا أنه ادعى النبوة، وكان رجلاً فرداً أمياً، خرج وأهل الأرض ذات الطول والعرض كلهم كفار، فقال لهم: «إني رسول الله وأنتم على الباطل، وآباؤكم في النار، ومعجزتي القرآن، فائتوا بسورة مثله»، وهم أهل الفصاحة والبلاغة، فعجزوا عن معارضته، واشتغلوا بالقتال. فإن قلت: فلعلهم عارضوه ولم ينقل إلينا. قلنا: هذا من أمحل المحال، فإن آحاد الوقائع ومفردات الأمور قد نقلت إلينا تواتراً، فلو كان ذلك لنقل وهذا مقطوع بصحته.

الباب الرابع

في شروط المعجزة

والمعجز في الحقيقة: خالق المعجزة، وهو الله تعالى. ولكن على طريق الاصطلاح سميت: الخصلة التي يكون ظهورها عند مدعي النبوة معجزة.

وشروط المعجزة سبعة: الأول: أن تكون أفعالاً؛ لأن القديم لا اختصاص له بصادق دون كاذب. الثاني: أن تكون ناقضة للعادة؛ لأن الفعل المعتاد كما يوجد مع الصادق يوجد مع الكاذب. والثالث: أن تكون في زمان التكليف؛ لأن الذي يظهر في القيامة من انفطار السماء وتكوير الشمس أفعال ناقضة للعادة، ليست بمعجزات؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف. الرابع: أن تكون مقرونة بالتحدي؛ لأنه يحصل أحياناً أفعال ناقضة، كالزلازل والصواعق، وليست بمعجزة. الخامس: أن

تكون الدعوى مقرونة بالنبوة؛ لأن كرامات الأولياء عندنا جائزة وليست بمعجزة، لأنها لا تكون مقرونة بالدعوى. السادس: أن تكون متمكنة بصدق من ظهرت على يديه؛ لأنه إذا ادعى النبوة فأطلق الله إصبعًا بأنه كاذب لم يكن دليلاً له[١]. السابع: أن تكون على وجه الابتداء؛ لأنه لو تلقف إنسان سورة من القرآن ثم مضى إلى قبيلة بعيدة ولم تبلغهم الدعوة وتنبأ هناك لم تكن معجزة.

فهذه شروط المعجزة لتستمسك بها، وامتحن بها فحول العلماء وأعلام الفضلاء تجد أكبرهم بمعزل عن معرفتها.

الباب الخامس

في معجزاته صلّى الله عليه وسلم

اعلم أن لنبينا محمد ﷺ معجزات كثيرة سوى القرآن، وقد جمعها العلماء في مجلدين تبلغ خلاصتها أربعة آلاف وخمسين معجزة، وأظهرها القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فمنها:

دعاؤه على عتبة بن أبي لهب فقال: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك» فكان في قافلة فقال أبوه: احفظوه فإن محمداً قد دعا عليه، فأخفوه تحت الرحال وأناخوا الجمال حواليه، فبعث الله أسداً حتى كان يشم القوم واحداً واحداً وافترسه ورضض عظامه[٢].

معجزة أخرى: دعا على أربد، وعلى عامر بن الطفيل، فأربد أصابته صاعقة من السماء فأحرقته، وعامر طعن في بيت عجوز سلولية فمات فيه، وكان

---

[١] كما حصل مع مسيلمة الكذاب لما ادعى النبوة، فتَفِلَ في البئر ليفيض فلم يفض بل غار ماؤه، وتفل في عينٍ سليمة فأعماها الله تعالى.

[٢] أي: كسرها بأسنانه.

يقول: غدة كغدة البعير.

معجزة أخرى: لما أنشد النابغة الجعدي شعراً بين يديه فاستحسنه فقال: «لا فض اللّه فاك» فعاش مائة وثلاثين سنة لم يسقط له سن، وقيل: متى سقط واحد من أسنانه نبت مكانه أحسن منه.

معجزة أخرى: أخذ كفًا من الحصى، فكانت تسبح وتهلل على يديه وتقـول: سبحانه وبحمده.

معجزة أخرى: لما اتُّخذ له منبر على ثلاث درج لازدحام الناس، كان هنـاك جذع يستند إليه رسول اللّه ﷺ، فحن الجذع مثل حنين المرأة عند الطلق، بحيـث سمع الناس حنينه، فنزل من أعلى المنبر واحتضنه واعتنقه حتى سكن، وامـتلأ المسجد بالضجيج والبكاء.

معجزة أخرى: في صميم الشتاء دعا بشجرة يابسة فأجابته وشقت الأرض حتى جاءت إليه.

معجزة أخرى: نبع الماء من خـلال أصـابعه حتـى روى منـه عـسكره وتوضأوا.

معجزة أخرى: تفل في بئر قد غار ماؤها، فنبع حتى بلغ رأس البئر، وتفل مرة أخرى في بئر الحديبية حتى روى ألف رجل وخمسمائة رجل.

معجزة أخرى: قد كمن قريش وهم مائة نفر لقتله، وحاشا لـصنع اللّـه أن يتغير، فخرج ونفض على رؤوسهم التراب ولم يره أحد.

معجزة أخرى: قال لرجال من أصحابه: «إن ضرس أحدكم في جهنم مثـل أحد»، فخافوا من ذلك، وكان يلتفت بعضهم إلى بعض وفيهم رجل فارتد - والعياذ باللّه - وقتل على ردته.

معجزة أخرى: أخبر أنه يقتل أبي بن خلف الجمحي، وكان كما ذكر.

معجزة أخرى: يوم بدر أخبر عن مصارع قتلى قريش ويقول: «إن فلاناً يقتل بهذا الموضع وفلاناً يقتل في هذا المكان». ويعين موضع كل واحد ومصرعه فكان كما ذكر.

معجزة أخرى: طويت له الأرض حتى رأى مشارقها ومغاربها، وأخبر أن ملك أمته سيبلغ إليها.

معجزة أخرى: قلعت عين قتادة، فوضعها في كفه وجاء إليه فوضع يده المباركة عليها وأعادها إلى موضعها، وتفل فيها فعادت كما كانت، ولم ترمد عينه قط، فلقب ذا العينين، وتفاخر بذلك أبناؤه.

معجزة أخرى: الحكم بن عامر كان يحاكي مشية النبي ﷺ على طريق الاستهزاء، فدعا عليه فصار مفلوجًا مرتعشًا بإذن اللّه.

معجزة أخرى: وكان تزوج بامرأة من قبيلة، فتعلل أبوها وقال: بها برص لا تصلح لك، فقال ﷺ: «ليكن كذلك» فأصابها برص، فسميت أم سبيب البرصاء.

معجزة أخرى: يوم أحد أصاب علي بن أبي طالب جراحات كثيرة يسيل منها الدم، فكان رسول اللّه ﷺ يمسح بيده عليها، وهي تلتحم وتلتئم بإذن اللّه تعالى. فكم يحصى من هذا؟.

الباب السادس

في نسب النبي ﷺ

هو محمد، بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي، ابن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، ابن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان، بن أد، بن أدد، بن إلياس، بن مضر، بن اليسع، بن الهميسع، بن سحب، ابن جميل، بن ثبت، بن سلمان، بن حمد، بن قيدار، بن إسماعيل، بن إبراهيم، ابن آزار، بن رياح، بن ناخور، بن أسروع، بن أرغو، بن فالور، بن فالق، ابن عاسر، بن سبغ، بن أرفخشذ، بن سلم، بن نوح، بن لمك، بن متوشلخ، ابن أخنوخ، بن يادر، بن مهلاييل، بن قنان، بن أنوش، بن شيث، بن آدم المخلوق من التراب.

فصل: اسم أمه آمنة بنت وهب، توفيت والنبي ﷺ ابن ست سنين، وتوفي أبوه وهو في بطن أمه، وكفله جده عبد المطلب، وهو ابن ثمان سنين.

فصل: أقام النبي ﷺ بمكة بعد الوحي ثلاث عشرة سنة، ثم هاجر عشر سنين بالمدينة. ميلاده يوم الاثنين في ربيع الأول، ووفاته يوم الاثنين في ربيع الأول في آخر الضحى، ودفن ليلة الأربعاء في وسط الليل، كانوا يصلون عليه ولم يؤمهم أحد.

فصل: أول امرأة تزوجها خديجة قبل الوحي، ثم سودة بنت زمعة، ثم عائشة بنت الصديق، ثم زينب بنت خزيمة الهلالية، ثم أم سلمة بنت أبي أمية، ثم جويرية بنت الحارث الخزاعية، ثم ميمونة بنت الحارث، ثم صفية بنت حيي، ثم زينب بنت جحش، ثم حفصة بنت عمر، ثم أم حبيبة بنت أبي سفيان، ثم العامرية بنت ظبيان، طلقها بعد أن دخل بها، ثم الكلابية فاطمة بنت الضحاك، ثم الكندية فهنّ أربع عشرة نسمة.

فصل: وتوفي النبي ﷺ عن تسع نسوة عائشة وحفصة وزينب وجويرية وأم حبيبة وسودة وأم سلمة وصفية وميمونة.

فصل: أولاده من خديجة: القاسم ولده، ثم زينب، ثم ابنه عبد اللّه الطاهر ولد في الإسلام فسمي طاهرا، ثم ابنته أم كلثوم، ثم ابنته فاطمة، ثم ابنته رقية. زوّج فاطمة من عليّ ورقية من عثمان- رضي اللّه عنهما- فماتت فزوّجه أم كلثوم- رضي اللّه عنها- وزوّج زينب من أبي العاص بن الربيع في الجاهلية، فلما نزل الوحي ثبت على كفره فاسترد النبي ﷺ ابنته منه على كره، ثم أسلم بعد ست سنين فردها عليه، ومات جميع أولاد النبي ﷺ قبله إلا فاطمة فإنها عاشت بعده ستة أشهر- رضي اللّه عنها.

الباب السابع

في أخلاق النبي ﷺ

سئلت عائشة- رضي اللّه عنها- عن خلق النبي ﷺ، فقالت: خلقه القرآن، يخزن لسانه إلا فيما يعنيه، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ولا ينفرهم، ويتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس ويحسن الحسن ويقويه، ويقبح القبيح ويوهيه، ويحذر الناس، ولا يقصر عن الحق، ولا يتجاوز، ولا يجلس ولا يقوم إلا عن ذكر اللّه، ويجلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك، ويعطي كل جلسائه نصيبه، ولا يحسب أحد من جلسائه أن أحداً أكرم عليه منه، ومن جالسه أو قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف، ومن سأله حاجة لم ينصرف إلا بها أو بميسور من القول، مجلسه مجلس علم وحياء وصدق وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات ولا تنتهك فيه الحرمات، وكان دائم البشر في جلسائه سهل الخلق لين

الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخّاب[١] بالأسواق، ولا فحاش ولا عياب، لا يذم أحداً ولا يطلب عوراته، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطيـــر، وإذا سكت تكلموا. يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون. وكان لا يغـــضبه شيء، وكان أبر الناس وأكرم الناس، ضحاكاً بساماً.

قال أنس: «إن امرأة كان في عقلها شيء، قالت: يا رسول اللّه، إن لي إليك حاجة، قال: يا أم فلان خذي في أي طريق شئت قومي فيه حتى أقوم معك، فخـــلا معها رسول اللّه ﷺ يناجيها حتى قضت حاجتها».

وقال أنس: «خدمت رسول اللّه ﷺ فما سبني قط ولا ضربني ضربة قـــط، ولا انتهرني، ولا عبس في وجهي، ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فعاتبني عليه فإن عاتبني أحد من أهله، قال: دعوه فلو قدر شيء كان».

وقال أنس أيضاً- رضي اللّه عنه: «أدرك أعرابي النبي ﷺ، فأخذ بردائـــه فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عنق النبي ﷺ وقد أثرت فيه حاشـــية الرداء من جذبته، ثم قال: يا محمد، مر لي من مال اللّه الذي عندك، فالتفت النبي ﷺ وضحك وأمر له بعطاء، فلو أن أزهد الناس قال لشحنة[٢] بلدة أو واليها: اتق اللّه لأمر بضرب عنقه، وكان أشد حياء من العذراء في خدرها. وأتى بقليل مـــن ذهب فقسمه بين أصحابه فقام بدوي، وقال: يا محمد: إن اللّه أمرك أن تعدل فمـــا عدلت، فقال: ويحك من يعدل عليك بعدي، فلما ولى قال: ردوه رويداً عليّ، وكان في بعض الغزوات فجاء رجل حتى قام على رسول اللّه ﷺ بالسيف، وقال: مـــن يمنعك مني؟ قال: اللّه فسقط السيف من يده، فأخذه رسول اللّه ﷺ، وقـــال: مـــن

---

[١] السَّخَب: بالسين، هو الصَّخب. "القاموس المحيط".

[٢] الشِّحنة: هي ما فيه الكفاية في البلد لضبطها مـــن جهـــة الـــسلطان. "القـــاموس المحيط".

يمنعك مني؟ قال: كن خير أحد قدر، قال: أشهد أن لا إله إلا اللّه وأني رسول اللّه، قال: لا غير أني لا أقاتلك ولا أكون معك ولا مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله، فجاء إلى أصحابه فقال: جئتكم من عند خير الناس.

وقسم يومًا قسمًا فقال أنصاري: إن هذه قسمة ما أريد بها وجه اللّه، فاحمر وجه النبي ﷺ وقال: رحمة اللّه على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

وعن أنس أن رجلا أتى النبي ﷺ، فسأل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فأتى قومه فقال: أسلموا فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخاف الفقر. وقدم على النبي ﷺ سبعون ألف درهم، وهو أكثر مال ما أتى به أحد قط، فوضع على حصير ثم قام إليها يقسمها، فما رد سائلا حتى فرغ منها.

وقال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «يا معاذ إذا كان الشتاء فغلِّس[1] بالفجر، وأطل القراءة قدر ما يطيق الناس، ولا تملهم. وإذا كان الصيف فأسفر[2] بالفجر فإن الليل قصير والناس ينامون، فأمهلهم حتى يدركوا».

وأعطى أعرابيا شيئًا، فقال: أحسنت إليك، قال: لا، ولا أجملت فغضب المسلمون وهموا به، فقال ﷺ: «كفوا عنه». فأعطاه حتى رضي.

---

[1] غَلِّس: من الغَلَس: وهو ظلمة آخر الليل. "القاموس المحيط".

[2] أسفر: من الإسفار، وهو إذا أضاء الصبح وأشرق.

الباب الثامن

في كتب النبي ﷺ التي أرسلها إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام

فأول كتابه إلى قيصر الروم رسوله دحية الكلبي: «بسم اللّه الرحمن الرحيم، من محمد رسول اللّه إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك اللّه أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين - يعني المزارعين - ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، أن لا نعبد إلا اللّه، ولا نشرك به شيئًا، ولا يتخذ بعضنا بعضًا أرباباً من دون اللّه». فلما افتض كتاب رسول اللّه ﷺ، قال: يا معشر الروم إني لأظن هذا الذي بشر به عيسى، ولو أعلم أنه هو لمشيت إليه حتى أخدمه بنفسي لا يسقط ضوءُه إلا على يدي. قالوا: ما كان اللّه ليجعل ذلك في الأعراب الأميّين ويدعنا نحن أهل الكتاب. فقال: بيني وبينكم الإنجيل نفتحه فإن كان هو إياه آمنا به، وعلى الإنجيل يومئذ اثنا عشر خاتمًا من ذهب، وكل ملك قد أخبر قومه أنه يوم يفتحونه يذهب دينهم ويهلك ملكهم. فلما أخذ أحد عشر خاتمًا وبقي واحد، قامت البطارقة فشقوا ثيابهم ونتفوا رؤوسهم، وقالوا: اليوم يهلك ملكنا ويتغير دينك، قال: فأسلم، فسبوه وصاحوا. فقال: يا معشر الروم كنت أريد أن أختبر صلابتكم في دينكم، فخروا له سجداً. فلعن اللّه أئمة السوء والبطارقة أئمة الكفر لقد ضلوا وأضلوا وأعطى رسوله مائة مثقال من الذهب.

كتاب آخر: إلى كسرى فارس رسوله عبد اللّه بن حذافة من الحديبية: «بسم اللّه الرحمن الرحيم من محمد رسول اللّه إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن باللّه ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك

له، وأن محمدا عبده ورسوله. أدعوك بدعاية اللّه فإني أنا رسول اللّه إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًا، ويحق القول على الكافرين. أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس». فقرأه ومزقه فلما بلغ رسول اللّه ﷺ، قال لرسول كسرى: «أبلغ صاحبك أن ربي قتل ربه هذه الليلة لتسع ساعات مضت منها وهي ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع، وأن اللّه مسلط عليه ابنه شيرويه فقتله، وأخبره أن ديني سيظهر على ما ظهر عليه. فمضى الرسول إلى باذان وأخبره بما قال، وقال: ما خفت شيئًا قط خوفي إياه، قال باذان: ويلك له حراس وشرط وسيوف، قال: لا ولكنه يمشي في الأسواق وحده. فجاء رسول كسرى وقال: إني قتلت كسرى غضبًا فأسلم باذان».

كتاب آخر: إلى منذر بن ساوى العبدي رسوله العلاء بن الحضرمي: بسم اللّه الرحمن الرحيم، من محمد رسول اللّه إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك، فإني أحمد اللّه الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا عبده ورسوله أما بعد، فإني أذكرك اللّه عز وجل، فإنه من صلى صلاتنا وأكل ذبيحتنا واستقبل قبلتنا له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين، ومن أبى فعليه الجزية.

كتاب آخر: إلى الحارث بن أبي شمر الغساني بغوطة دمشق. «بسم اللّه الرحمن الرحيم، من محمد رسول اللّه إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدق اللّه، وإني أدعوك إلى أن تؤمن باللّه وحده لا شريك له يبقى لك ملكك» وختم الكتاب فقرأه ورمى به، وقال: من ينزع مني ملكي أنا سائر إليه، لو كان باليمن جئته عليّ بالناس، فلم يزل جالسا يعرض عليه حتى الليل وأمر بالخيول أن تنعل، ثم قال: أخبر صاحبك بما ترى، ومات الحرث عام الفتح، ووليه جبلة بن الأيهم، آخر ملوك غسان، فأدركه عمر بالجابية فأسلم. ووطئ رجل من مزينة إزار جبلة، فانحل فلطم عينه ففقأها، فجاء به إلى عمر فقال: خذ لي بحقي، فقال عمر: الطمْ عينه، فقال جبلة: عيني وعينه سواء؟!

قال: نعم، قال: لا أقيم أبدا بهذه الأرض، فلحق بعمورية مرتدًا ثم ندم علـــى ذلـــك وله أبيات في ندامته فمات بها.

كتاب آخر: إلى فروة الجذامي عامل قيصر على عمان فأسلم هو، وكتب إلى النبي ﷺ. لمحمد رسول اللّه: إني مقر بالإسلام مصدق به، أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه، وأنت الذي بشر بك عيسى بـــن مـــريم عليـــه الـــصلاة والسلام، وبعث بغلة بيضاء وحماره يعفور، وأثواب سندس، فلما قرأ النبـــي ﷺ كتابه أمر بلالا أن يكرم رسوله، فلما أراد الخروج كتب: «من محمد رسول اللّـــه إلى فروة بن عمرو، سلام عليك فإني أحمد اللّه الذي لا إله إلا هو أما بعد، فإنـــه قدم علينا رسولك بكتابك، وبلغ ما أرسلت به وأخبر عما قلت، وأنبأنا بإســـلامك. وأن اللّه قد هداك بهداه إن أصلحت وأطعت اللّه ورسوله وأقمت الصلاة وآتيـــت الزكاة» وأعطى رسوله خمسمائة درهم، وأعطى البغلة للـــصديق- رضـــي اللّـــه عنه- وبلغ قيصر إسلام فروة فحبسه في السجن، وقال: ارجع إلى دينك، قال: لا أفارق دين محمد ﷺ، ومات مصلوبا في السجن- رحمة اللّه عليه.

كتاب آخر: إلى المقوقس صاحب الإسكندرية رسوله حاطب بن أبي بلتعـــة: «بسم اللّه الرحمن الرحيم من محمد رسول اللّه إلى المقوقس عظيم القبط، ســـلام على من اتبع الهدى أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك اللّـــه أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم القبط، ويا أهل الكتاب تعالوا إلـــى كلمـــة سواء بيننا وبينكم، أن لا نعبد إلا اللّه، ولا نشرك به شيئًا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون اللّه». وختم الكتاب فأخذ الكتاب وجعله في حق عاج، ودعا كاتبه، وكتب لمحمد بن عبد اللّه: «من المقوقس عظيم القبط سلام عليك، وإنـــي قـــرأت كتابك وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيا قد بقي، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكـــسوة وقد أهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام». ولم يسلم والبغلة دُلْدُل، ولم يكـــن فـــي

العرب مثلها، فبقيت إلى زمن معاوية- رضي اللّه عنه- ومارية وأختها سيرين، وعرض عليها النبي ﷺ الإسلام، وكانت مارية جميلة فوطئها رسول اللّه ﷺ، وسيرين وهبها لحسان بن ثابت- رضي اللّه عنه- والدلدل لعليّ- رضي اللّه عنه- وقال لحاطب: هذا رسول اللّه والقبط لا يطاوعونني، وأنا أضن لملكي أن أفارقه وسيظهر على البلاد ويطأ موضع قدمي هذا، قال: فأخبرت النبي ﷺ فقال: «ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه». ومات في ولاية عمرو بن العاص بمصر فدفن في كنيسته.

الباب التاسع

في خصائص النبي ﷺ

ولما خص اللّه سبحانه وتعالى نبيه بوحيه وأبان بينه وبين خلقه، خفف أشياء شددها على غيره كرامة وتعظيمًا، وشدد عليه أشياء خففها على غيره زيادة في درجاته، فالذي شدد عليه وأباح لغيره سبعة وعشرون شيئًا، أوجب عليه أن يخير نساءه، وأوجب عليه صلاة الليل، وحرم عليه صدقة الفريضة وصدقة التطوع، وحرم عليه خائنة الأعين، وإذا لبس لأمَتَه[1] لم يكن له أن ينزعها حتى يلقى العدو، وأوجب عليه النكير على المنكر، وليس له أن يكتب ولا يتعلم شعرا، وقال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وليس كذلك غيره حتى يموت، وكان عليه قضاء دين من مات من المسلمين، وكلف وحده من العلم ما كلف العالم بأجمعهم، وقال: «أما أنا فلا آكل متكئا وأمرت بالسواك حتى خفت أن يفرض على أمتي». ولا يأكل البصل والثوم والكراث، وقال: «لولا أن الملك يأتيني

---

[1] لأمَتَه: الأمَة: الدّرع. "القاموس المحيط".

لأكلته». وكان مطالبا بربه ومشاهدة الحق مع معاشرة الناس، وكان يغـان[١] علـى قلبه فيستغفر اللّه تعالى سبعين مرة، وكان يؤخذ عن الدنيا عند تلقي الـروح وهـو مطالب بأحكامها، ولا يصلي على من عليه دين ثم نسخ، ولا يجوز له أن يبدل مـن أزواجه أحدا ثم نسخ.

وأبيح له سبعة وثلاثون حرام على غيره: أبيح له من النـساء أكثـر مـن أربع، والموهوبة والنكاح بلا ولي ولا شاهدين، وأبيح له بتزويج اللّه، وجاز لـه أن يعقد بغير استئمار ولي، وجعله اللّه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأبـاح لـه النكاح في الإحرام، وتزوج صفية وجعل عتقها صداقها، وأباح له الفيء[٢] وأربعة أخماس الفيء وخمس خمس الغنيمة[٣]، والحِمَى له خاص ودخول الحـرم بغيـر إحرام، والقتل في الحرم؛ قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة، والقتـل بعـد إعطاء الأمان، واستباح قتل من سبه أو هجاه امرأة كانت أو رجلا، وجعل سـبه للمسلمين رحمة فهو له مباح، والوصال مباح له، وكان ينام ولا ينتقض وضوءه، وصلاة التطوع قاعداً كصلاته قائمًا[٤]، وإليه تنسب أولاد بناته، والأنـساب كلهـا منقطعة يوم القيامة إلا نسبه، وأبيح له أن يدعو المصلي فيجيبه وإن كـان فـي

---

[١] وفي ذلك يقول سيدي أبو الحسن الشاذلي ﷺ: هذا غَيْن أنوار لا غَيْن أغيار.

[٢] الفيء: ما ردَّه الله على أهل دينه من أموال من خالفهم في الدين بلا قتال، إما بـالجلاء أو بالمصالحة على جزية أو غيرها. والغنيمة أخص منه، والنَّفل أخص منهمـا. التعريفـات – العلامة الجرجاني – ص ١٤٨.

[٣] الغنيمة: اسمٌ لما يؤخذ من أموال الكفرة بقوة الغزاة وقهر الكفرة على وجه يكون فيه إعلاء كلمة الله تعالى، وحكمه أن يخمَّس، وسائره للغانمين خاصة. المصدر السابق – ص ١٤٢.

[٤] فليست على النصف من الثواب كما هو لسائر المكلفين.

الصلاة، وماله بعد موته قائم على نفقته وملكه، ودخول المسجد جنبا، وأبيح له الحكم لنفسه وقبول شهادة من شهد له، والحكم لولده. وشربت أم أيمن بوله فلم ينكر عليها، وقال: «إذاً لا ينجع بطنك». وشرب ابن الزبير دمه فلم ينكر عليه، وقسم شعره بين أصحابه فكانوا يصلون فيه، كل ذلك خاص به ﷺ.

الباب العاشر

في حلية النبي ﷺ

كان ينسب إلى الرَّبْعة[١] إذا مشى وحده، وإذا مشى مع قوم يطول عليهم بالرأس، وكان أزهر اللون لم يكن بالآدم[٢] ولا بالشديد البياض، وقيل: إنه مشرب بحمرة ما وصفه أحد إلا قال: هو كالقمر الطالع والبدر الزاهر، لم يكن شعره بالجعد ولا بالسبط وكان بين ذلك، وكان أزج الحاجبين، عيناه نجلاوان[٣] أدعجهما[٤]، وكان أقنى العرنين[٥]، مفلج الأسنان، سهل الخدين، ليس بطويل الوجه ولا المكلثم[٦]، كث اللحية يعفو لحيته ويأخذ شاربه، عريض الصدر عظيم المنكبين أشعرهما، معتدل الخلق، كفه ألين من الخز كأن كفه كف عطار يصافح المصافح فيظل اليوم يجد

---

[١] الرَّبْعة: هو ما بين الطول والقصر.

[٢] الآدم: الأسمر، مأخوذ من الأُدْمة.

[٣] أي: واسعتان.

[٤] الدَّعج: سواد العينين مع سعتها. "القاموس المحيط".

[٥] الأقنى: من القَنْوة، وهو ارتفاع أعلى الأنف، واحديداب وسطه، وسبوغ طرفه، أو نتوء وسط القصبة، وضيق المنخرين. "القاموس المحيط".

[٦] المُكَلْثَم: مُجتمع لحم الخدين.

ريحها.

فصل: ما بين كتفيه من الجانب الأيمن شامة سوداء تضرب إلى الـصفرة، حولها شعرات متواليات كأنها في عرف فرس، وقيل: خاتم النبـوة مثـل بيـضة الدّيك[١]، مكتوب عليه لا إله إلا اللّه توجه حيث شئت فأنت منصور.

قال النبي ﷺ: لي عند ربي عشرة أسماء: أنا محمد، وأنـا أحمـد، وأنـا الماحي الذي يمحو اللّه بي الكفر، وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي، وأنا الحاشر يحشر اللّه العباد على قدمي، وأنا رسول الرحمة، ورسول التوبة، ورسول الملاحم والمقفى قفيت الناس جميعا، وأنا قُثَم[٢]. وهو الكامل الجامع صـلى اللّـه عليـه وعلى آله وصحبه وسلم.

---

[١] بيضة الديك: يعني بيضة الدجاجة، ففي "القاموس المحيط": وقد يطلق – أي: الديك – علـى الدجاجة كقوله: (وزقّت الديك بصوت زقًا) فالديك هنا مؤنث يعني الدجاجـة للحـوق تـاء التأنيث للفعل "القاموس المحيط" مع زيادة توضيح.

[٢] القثم: كثير العطاء، معدولٌ به عن (قاثم) بالثاء، وهو الجموع للخير والعيال، فقـد نافت ذرية النبي صلى الله عليه وسلم، ورضي الله عنهم جميعا في عصرنا هذا علـى الثلاثـة ملايين كما سمعته من شيخي وأستاذي مفتي الديار المصرية الدكتور علي جمعة- حفظـه الله تعالى.

الباب الحادي عشر

في بيان أنه رسول صادق وأن رسالته لم تزل

ومن علم أن النبوة راجعة إلى حكم اللّه للنبي بأنه نبي وحكمه خبر وخبره قديم، علم أن الأنبياء الآن أنبياء في حكمه؛ لأن خبره وقوله لا يجوز عليه العدم. والمؤمن إذا مات لا يزول حكم إيمانه، فكيف يزول عن النبي المؤيد بالمعجزات؟ والعالم إذا نام ففي حال نومه لا يحفظ العلم ولا يتذكره وهو عالم، فكيف النبي وقد ورد القرآن بأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون؟ فكيف الأنبياء وقد شنع المعتزلة الفجرة على أهل السنة بهذه المسألة؟ إنكم تقولون إن النبي ليس نبيا في قبره، وحاشا لأهل السنة من هذا الاعتقاد. قاتل اللّه المعتزلة أنى يؤفكون، بل الذي قاله أهل السنة أن النبي ﷺ رسول على رسالته، نبي على نبوّته، صادق في رسالته عالم بأمر أمته، مستبشر بطاعاتهم، مستغفر لزلاتهم، وقد قال ﷺ: «تعرض عليّ أعمالكم كل ليلة اثنين وخميس مرة فإن كان خيرا حمدت اللّه تعالى على ذلك، وإن كان معصية استغفرت اللّه لكم».